أهمية تدوين التاريخ الشفهي

الدكتور : عبدالله بن إبراهيم العسكر*

* بكالوريوس تربية من جامعة الملك سعود عام ١٩٧٤م.
- ماجستير في التاريخ من جامعة كاليفورنيا في لوس إنجلس ١٩٨٠م.
- دكتوراة الفلسفة من الجامعة نفسها عام ١٩٨٥م.
- يعمل الآن أستاذاً في كلية الآداب قسم التاريخ بجامعة الملك سعود

توطئة:

يبدو أن أهمية التاريخ الشفهي، واستعماله باعتباره مصدراً تاريخياً، تزداد في الآونة الأخيرة، ويلقى رواجاً في الأوساط العلمية. ولعل ما أخر دخول التراث الشفهي إلى دائرة التاريخ أن المؤرخين ينظرون إلى ذلك التراث نظرة غير جدية، ويعدّونه ضرباً من الفنون الشعبية التي لا يمكن الركون إليها. وهذه الورقة سوف تطرق موضوع التراث الشفهي من خلال الوقوف عند قضايا ثلاث: الأولى علاقة التراث الشفهي بالتاريخ، والثانية أهمية المصادر الشفهية. أما القضية الثالثة، فهي عن تحويل الرواية الشفهية إلى تاريخ مدوّن، مع أمثلة مختصرة عن واقع التراث الشفهي في كل من الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية. وبداية فإنني كلما اشتغلتُ بقضية تتعلق بالتراث الشفهي واجهتني مشكلات، منها: تذكّر قول روبرت لوي "Robert Lowie" كيف يمكن للمؤرخ أن يخدم نفسه باعتقاده أنه يحتاج فقط إلى أن يستجوب السكان المحليين لكي يتعرّف على تاريخهم" أو قوله أيضاً: إنني لا أستطيع أن

أعلّق أية قيمة تاريخية على الروايات الشفهية تحت أية ظروف"[١] ومع هذا فإن تراث الشعوب لا يزال يحمل في طياته الشيء الكثير مما يمكن معه تلمس حقائق، ومعلومات نفيسة لا نجدها في التاريخ المدوّن، ويجعلنا نحن المؤرخين أمام واقع لا نقبل معه أقوال روبرت لوي على علاتّها، ذلك أن كل مأثورة أو حكاية شعبية، وكل تقليد من التقاليد يرجع في أصله إلى بعض الحقائق المحددة في تاريخ الإنسان. أما ما جعل روبرت لوي ومن حذا حذوه يهملون التراث الشفهي؛ فهي نزعة السيطرة النصّية Textuality على عقول العلماء والباحثين، تلك النزعة التي تجعلنا أيضاً لا نتعامل مع التراث الشفهي إلاّ من خلال النصوص المدونة[٢].

ومن هذا المنطلق يمكن أن يتذكر المرء أقوال آخرين يشيدون بأهمية التراث الشفهي كقول فيدر "A. Feder إن المأثورات يجب أن تكون مقبولة؛ لأنها تستحق الثقة"[٣] وليس هذا كل ما واجهني في مثل هذه البحوث، فقد عانيت الكثير في قضية الاصطلاحات وتحديد معانيها، وأحسب أن مرد ذلك أن موضوع التراث الشفهي يكتنفه الغموض، و أن علم التراث الشفهي علم تنازعه العلوم، إن صح التعبير، بل هو علم مُشترك بين التاريخ وعلم الاجتماع، والانثروبولوجيا، والأدب، واللغة، وغيرها من العلوم الإنسانية الأخرى، وحتى عندما بدأ يستقل تحت مسمى علم الفولكلور Folklore فإنه بقي غامضاً من حيث تحديد المصطلحات والمناهج[٤].

(1) Robert Lowie, Oral Tradition and History, JAF, 30, 1917, p.163.

(2) Ibid, p.598.

(٣) والترا أونج، الشفهية والكتابة؛ ترجمة حسن البنا عزالدين، **سلسلة عالم المعرفة** ١٨٢، الكويت، ١٩٩٤م، ص٢٩٠ وما بعدها.

(٤) فانسينا، يان. **المأثورات الشفهية: دراسة في المنهجية التاريخية**؛ ترجمة أحمد علي مرسي ٠- القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م، ص٢٣٦ نقلاً عن:

Feder, A., Methodik, Gegensburg Lehrbuch der Geschichtlichen, 1924.

لقد نقل الدكتور نبيل سلامة من قاموس لاروس Larousse أن التراث الشفهي هو: "مجموعة التقاليد من أساطير ووقائع ومعارف ومذاهب وآراء وعادات وممارسات"[(١)]. أما قاموس روبير فيُعرف التراث الشفهي بأنه "انتقال غير مادي للمذاهب والممارسات الدينية والأخلاقية المتوارثة من عصر إلى آخر بواسطة الكلمة المنطوقة"[(٢)]. ويزداد الأمر تعقيداً عندما ننظر في التعريفات التي أوردها المشتغلون بهذا العلم، وسيرد شيء من هذا في ثنايا البحث.

رأيت أن أتبنى ما يراه المؤرخون من أمثال دانيل ماكول Daniel McCall تجاه قضية المصطلحات، وأختار مصطلح "التراث الشفهي" في مجمل صفحات هذا البحث، وذلك لسببين ، الأول : أن كثرة المصطلحات للعلم الواحد أو حتى لفروعه تُعقّد موضوع البحث وتُشعّب مسالكه ، والثاني : أنني وجدت أن اصطلاح التراث الشفهي أقرب للتاريخ من غيره من الاصطلاحات الأخرى من مثل : التراث الشعبي، أو المأثورات الشعبية، أو الفولكلور وغيرها كثير، وهو ما اختاره والتر أونج Walter J. Ong المتخصص في الآداب الشفهية[(٣)] وجملة القول: إنه لا مشاحّة في الاصطلاح ما دام يُعبر عن المراد. من هنا خطر ببالي سؤال أراه مهماً في هذا الميدان وهو: ما علاقة التراث الشفهي بالتاريخ؟

(١) الباحث لا يميل إلى الأخذ بشمولية كلمة فولكلور وأنها تعني كل التراث الشعبي، ذلك أن هذه الكلمة يختلف معناها من بلد لآخر. فبينما يجعلها الفرنسيون شاملة لمعظم قضايا التراث الشعبي، يجعلها الروس تعني الثقافة الشعبية غير المادية، ويتخذون كلمة إثنوغرافيا Ethnography لتعني التراث الشعبي المادي. انظر عن هذا الاختلاف: نبيل جورج سلامة . **التراث الشفوي في الشرق الأدنى ومنهجية حمايته** . – دمشق : وزارة الثقافة السورية، ١٩٨٦م، ص٣٩ وما بعدها.

(٢) نبيل سلامة . **التراث الشفوي**، ص٦٠.

(٣) نبيل سلامة . **التراث الشفوي**، ص٥٩.

علاقة التراث الشفهي بالتاريخ:

إن تخلي المؤرخين عن المصادر الشفهية قد ترك للمختصين في الفولكلور والانثروبولوجيا الميدان واسعاً، مما جعل تلك المصادر تنأى عن بُعدها التاريخي، ولم يعترف المختصون في تلك العلوم بأهمية التاريخ في دراسة التراث الشفهي إلاّ في مطلع عقد الخمسينيات من القرن الميلادي الماضي. ولعل السبب - كما أسلفت - هو سيطرة علماء الفولكلور على المصادر الشفهية، وكانوا يطلقون على تلك المصادر اسم الأساطير والخرافات الوعظية Didactic legends ، وكانوا يرونها تدل على المعنى الفلسفي والمغزى التعليمي أكثر من كونها تحمل أية تفاصيل تاريخية. بل وصل الأمر ببعضها على التصريح بأن المصادر الشفهية لا تحتوي على حقائق تاريخية(١). إن هذه الأقوال وأمثالها هو ما أخر الاستفادة من التراث الشفهي باعتباره مصدراً من مصادر التاريخ المُتعددة. ومع هذا لعلي لا أُبالغ إذا قلت إن التراث الشفهي وثيق الصلة بالتاريخ؛ ذلك أنّ الأول يعدُّ مرآة المرحلة الحضارية التي يعيشها الناس، وهو يُعبّر عن أفكارهم وعواطفهم، كما أنه يصور شيئاً غير يسير من النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة، بل إن بعض الباحثين يعتقد أن التاريخ المدونّ ولد في أحضان التراث الشفهي(٢).

إن مكونات التاريخ الشفهي هي مكونات التراث الشعبي من مثل: الحكايات، والقصص، والسير الشعبية، والأمثال والحكم، والغناء، والشعر، فهل يمكن والحال هذه أن يتجاهل المؤرخ التراث الشفهي؟ أظن أن الإجابة عن مثل هذا السؤال هي

(١) يحمل كتاب والتر أونج عنوان: **الشفهية والكتابية**، مما يعني اختياره لهذا المصطلح. وانظر أيضاً فانسينا. **المأثورات**، ص٣٥.

(2) Hanige, David, Oral Historiagraphy, 1st. ed. University of Texas, Auston, 1983, p.20.

بالنفي، إذّ إن المأثورات الشفهية يمكن أن تعزز الثقة في بعض النواحي التاريخية، مع العلم أن بعض العلماء يرى العكس هو الصحيح، إذ يجب في نظرهم أن نفحص التراث الشفهي من منظور التاريخ المدّون أو الآثار أو اللغة[١].

لقد ذهب بعض المؤرخين المشتغلين بالتراث الشفهي إلى ضرورة التعامل معه بطريقة تختلف عن بقية العلماء المتخصصين في علوم أخرى، من هنا قدّم باور W. Bauer تقسيمه للمأثور الشفهي من منظور تاريخي، واقترح تقسيمه إلى قسمين: الأول يشمل كل المصادر المعروفة أو الثابتة أو المتغيرة الصحيحة أو المُحرفة. أما الثاني، فهي المصادر التي لم يعرف مؤلفوها والتي انتشرت في المجتمع بطريقة غير معروفة من مثل: الحكايات الشعبية، والأساطير، والملاحم، والسيّر، والنوادر والأمثال، والأغاني الشعبية[٢]. ولقد أضاف آخرون الإشاعة وهي في نظر الباحث قد تحمل شيئاً من التاريخ، ولكن شريطة أن تُعززها مصادر تاريخية معروفة. أما الملاحم والسيّر والنوادر؛ فإنه يحسُن استقصاء وسيلة نقلها، ويُفضّل استبعادها إذا احتوت على تناقضات. أما الأغاني؛ فهي في نظر الكثيرين دعاية مقصودة قد تضر بالتاريخ أكثر مما تنفعه.

لقد كثر المؤرخون المشتغلون بالتراث الشفهي ويأتي على رأسهم فاج D. Gage وأليفر R. Oliver اللذين استخدما المأثورات الشفهية باعتبارها مصدراً تاريخياً، ويرى من درس أعمالهما أنهما لم يطورا نظرية أو طريقة للتعامل مع المأثور الشفهي في ميدان التاريخ كما فعل يان فانسينا J. Vansina فيما بعد.

لقد عمل يان فانسينا على إبراز القيمة التاريخية للتراث الشفهي والأنواع

(1) lbid.

(2) Feder, cit., p.66.

الأخرى من التراث الشعبي في كتابه الذائع الصيت الموسوم بـ (المأثورات الشفهية: دراسة في المنهجية التاريخية) الذي صدر في طبعته الفرنسية لأول مرة عام ١٩٦١م ثم ظهر في طبعة إنجليزية عام ١٩٦٥م في شيكاغو. لقد كان كتاب فانسينا مؤثراً وظل مرجعاً للمؤرخين المشتغلين بالمصادر الشفهية[١].

أهمية المصادر الشفهية:

إن الثقافات المعروفة والمدونة كانت في الأصل ثقافات شفهية، فالإلياذة والأوديسة وغيرهما من آثار اليونان كانت في الأصل شفهية، وكان هوميروس أول مؤرخ شفهي وصلتنا أعماله مدونة، وجاء بعده هيرودوتس Herodotus وتوكيديدس Thucydides وهما أول من جمع بين الرواية الشفهية والمدونة. وكان الأول يقوم برحلات كثيرة في آسيا الصغرى والشرق الأدنى يجمع القصص والحكايات حول تاريخ البلاد التي يزورها[٢]. وفي العصر المسيحي الأول كان للروايات الشفهية مكانة سامقة، ذلك أن أغلب المسيحيين لم يكونوا ملمين بالقراءة، ولذا تبرز الرواية الشفهية في أسفار الإنجيل التي امتد تأليفها على مدى خمس وسبعين سنة،ومثل ذلك يُقال عن أسفار الأبوكريف[٣]. Apocrypha وفي العصور الوسطى الأوربية لم يكن أمام المؤرخين ، إلاّ الروايات الشفهية مصدراً لتواريخهم. وكان جل اعتمادهم

---

(1) Bauer, W., Einfuhrung in das studium der Geschichte, Tubingen, 1928, p.passim.

(٢) احتل فانسينا مكانة مرموقة في ميدان التاريخ والتراث الشفهي، وغدت كتبه مرجعاً لعلماء كثيرين في التاريخ والفولكلور والأنثروبولوجيا والاجتماع. يقول تيرانس رانجر: Terance Ranger " إن فانسينا كان أساسياً بالنسبة إلينا جميعاً لدرجة أنه لو لم يكن موجوداً لكان علينا أن نخترعه" فانسينا. **المأثورات الشفاهية**، ص٤٥.

(٣) ديفيد هينج . **التاريخ الشفهي**؛ ترجمة ميلاد المقرحي، مركز دراسة جهاد الليبيين سلسلة الدراسات المترجمة، ٢٠ طرابلس ١٩٩١م، ص٢٤.

عليها وعلى مذكراتهم الشخصية أو على شهادة عيان . ولهذا السبب يعدّ (كتاب دوميزداي (Bomesday Book) أول مصدر في تاريخ إنجلترا الاجتماعي والاقتصادي في الفترة النورماندية في عام ١٠٨٦م. وكانت الروايات التي قُدمت مشافهةً هي عماد هذا الكتاب[١]. ومثل ذلك الأغنية الشعبية القصصية (البالاد) والشعر الإنجليزي القديم والوسيط، ونشيد رونالد كلها آداب شفهية ، كما استخدم المؤرخون العرب والمسلمون المادة الشفهية بشكل واسع، بل إن قدراً من التراث العربي المدوّن، في ميادين علمية كثيرة، كان تراثاً شفهيّاً قوامه التداول والرواية الشفهية، وهناك إجماع على أن جل المحدثين والمؤرخين والإخباريين والأدباء والشعراء الأوائل قد استفادوا من المصادر الشفهية، فالبلاذري (ت ٢٩٨هـ) والطبري (ت ٣١٠هـ) والمسعودي (ت ٣٤٦هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) يأتون على رأس المؤرخين المسلمين الأوائل الذين اعتمدوا بشكل كبير على الروايات الشفهية عند تأليفهم كتبهم، ويكاد الشعر العربي الجاهلي برمته أن يكون شعراً شفهيّاً نشأ في وسط غنائي[٢].

ويرجع الفضل إلى العلماء المسلمين الذين قننوا قواعد علمية للاستفادة من الروايات الشفهية . أصبحت تلك القواعد فيما بعد علوماً مستقلة مثل: علم الإسناد، وعلم الرجال، وعلم الجرح والتعديل، ومصطلح الحديث، وغير ذلك كثير[٣] ومع هذا

(١) ديفيد هينج. **التاريخ الشفهي**، ص٢٦.

(2) Hanige, Oral Historiography. p.8.

(٣) عن نظرية النظم الشفوي في الشعر الجاهلي انظر: مقالة جيمس مونرو، فقد كتب مونرو مقالة مطولة عن هذا الموضوع؛ ترجمها فضل العماري ونشرها باسم: **النظم الشفوي في الشعر الجاهلي** .- الرياض: دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، ١٤٠٧هـ، ص١٤ وانظر: جواد علي. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** .- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨م، ج٨، ص٩١.

الواقع فإن عدداً من المؤرخين الآن لا يعترف بالمصادر الشفهية. ويقول مسعود ضاهر: "إن هذه الظاهرة أمام تدوين الكثير من الحقائق التاريخية الجديدة التي يتم اكتشافها في أثناء إجراء المقابلات الشخصية الشفهية[١]". كما أدى إهمال المؤرخين للتراث الشفهي إلى ترك هذا الميدان للمتخصصين في الأنثروبولوجيا والفولكلور الذين لا يهتمون بالماضي، ومن هنا جاءت أغلب أدبيات التراث الشفهي المعاصرة ناقصة وغير مقنعة.

أما في العصر الحديث؛ فقد نشطت حركة الاستفادة من المأثور الشفهي في ميدان التاريخ منذ القرن الثاني عشر الميلادي حتى القرن السادس عشر في أوربا، ونتج عن ذلك كُتب تاريخية كنظام الحوليات، ومؤلفات عن تاريخ المدن وتاريخ الأسر الحاكمة. ثم ضعفت الحركة في القرن التاسع عشر. أما في أمريكا، فقد استمر الاهتمام بالتراث الشفهي، ذلك لأنه يُشكل المصدر شبه الوحيد للسكان المحليين والمهاجرين على حد سواء. وبحلول القرن العشرين الميلادي ازداد الاهتمام بالمأثور الشفهي في ميدان التاريخ، ولم يطلع فجر عقد الستينيات من ذلك القرن إلاّ وقد برزت حركة علمية قوية بقيادة يان فانسينا وآخرين من المؤرخين والأنثروبولوجيين والفولكلوريين تدعو إلى اعتماد المأثور الشفهي مصدراً من مصادر التاريخ[٢].

إن من يظن أن الروايات الشفهية لا تصلح وثائق ومستندات لدراسة التاريخ، قد يتراجع عن رأيه إذا تذكر أن أغلب الوثائق المدونة كانت في الأصل روايات شفهية متناقلة قبل أن تدّون، وعلى هذا الأساس ، فإن الوثائق الشفهية لا تقل

---

(١) أسد رستم . **مصطلح التاريخ** .- بيروت : المكتبة العصرية، ١٩٨٤م ، ص١.

(٢) مسعود ضاهر. التأريخ الأهلي والتأريخ الرسمي: دراسة في أهمية المصدر الشفوي.- **مجلة الفكر العربي**، السنة ٤، العدد ٢٧ مايو- يونيه ١٩٨٢م، ص١٨٥، وما بعدها.

أهمية عن الوثائق المدونة، ولا تتفوق الأخيرة على الأولى إلاّ بكونها تخضع لطرق متعددة للتأكد منها وخلوها من التزوير، ولكن ليس من الصعب أن نضع ضوابط مماثلة لإثبات صحة الوثائق الشفهية قبل تسجيلها بواسطة آلات التسجيل أو تدوينها[(١)].

بل إن المقابلة الشخصية، أو ما يُسميه بعضهم بالتاريخ الحي Life History لأجل تسجيل النص الشفهي توضح أبعاداً نفسية وإنسانية لا يمكن الوصول إليها من خلال النص المكتوب.

فالمؤرخ في هذه الحالة يعيش الأحداث التاريخية التي يدرسها عبر بعض المشاركة فيها أو ممن سمعها من المشاركين فيها، وله إمكانية الحوار المباشر معهم واستيضاحهم جوانب كثيرة عن الماضي، كما يستفيد المؤرخ بطريقة مباشرة من الانطباع العام الذي تركته الأحداث اللاحقة في نفس الفرد الذي شارك في صنع الحدث أو شهده أو سمعه ممن شهده، وهذا بدوره يسهم في ضبط الاستنتاجات العلمية التي يتوصل إليها الباحث، وأيضاً عن طريق اكتشاف حقيقة الأهداف التي توخاها أولئك الناس من صنع أحداث محددة[(٢)].

إن المصدر المدوّن ليس سوى حوار الفرد مع ماضيه الشخصي، ولهذا السبب لا يجوز

(١) سيد حامد حريز. **مناهج التراث والتاريخ الشفهي عند العرب** ·- أبو ظبي : جامعة الإمارات العربية المتحدة - كلية الآداب، ١٩٩٢م، ص٤، وما بعدها. في تلك الفترات ظهرت دراسات كثيرة من أهمها: كتاب الفولكلور كعلم تاريخي جي إل قوم. وكتاب الفولكلور والمأثورات الشفهية: دراسة في المنهجية التاريخية لدورسون. وكتاب ما هو التاريخ لكار. وكتاب صوت الماضي: التاريخ الشفهي لتومسون. وكتاب علم المأثورات الشفهية التاريخية لهنجي. وكل هذا يدل على تزايد اهتمام العلماء بالتراث الشفهي في تلك الفترة.

(٢) ضاهر: **التأريخ الأهلي والتأريخ الرسمي**، ص١٨٥.

أن نبالغ في إبراز دور الفرد مهما كانت مرتبته الاجتماعية، كما لا يجوز المبالغة في بناء استنتاجات عامة على أساس آرائه الخاصة؛ فالفرد مهما كانت مرتبته الاجتماعية لا يمكن أن يكون صانعاً للحدث التاريخي، بل مجرد مشارك فيه[1].

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الكثير من الروايات الشفهية والمأثورات والتقاليد الشعبية وهي إلى حد ما (أطلال الماضي) تعرضت للتغيير والتفكك والتعديل والحذف والإضافة، ولهذا لا يجب أن ننظر إليها كحقيقة تاريخية مطلقة، وهذا ما ولّد لدى بعض المؤرخين مفهوماً مفاده : أنّ المصدر الشفهي لا يصلح إلا لدراسة المجتمعات التي لم تعرف التَّدوين، ولهذا السبب أيضاً يرفض بعض المؤرخين اعتماد الرواية الشفهية أو المصدر الشفهي إلى جانب الوثيقة أو النص المدون. حقيقة الأمر - كما مر معنا - بعكس ذلك، فقد تم استعمال المصدر الشفهي في الدول المتطورة، مثل: بريطانيا والولايات المتحدة منذ مطلع القرن العشرين، بالإضافة إلى أنه ينظر إلى الرواية الشفهية على أنها مكملة للنص المدّون، ولا تقوم مقامه. وقد ثبت أكثر من مرة أن بعض المقابلات الشخصية الشفهية تكشف حقائق تاريخية جديدة تُنشر لأول مرة.

إن المصدر الشفهي ضرورة علمية لفهم حقائق التاريخ. وحقائق التاريخ في التعريف الحديث هي: كل ما تركه السلف من أعمال ومخطوطات ووثائق وتسجيلات وعادات وتقاليد وطقوس دينية، وفنون ، وقصص شعبية، وأدوات وآلات متوارثة وغير ذلك ...

ومع أهمية التراث الشفهي المتزايدة واهتمام العلماء به، فإن مواقفهم تبدو

(١) المقرحي: ميلاد. الرواية الشفهية والمصادر المدونة، الجزء الأول ٠- **مجلة قاريونس العلمية**، السنة الثانية، العدد الرابع ٠- بنغازي، ١٩٨٩م، ص١١٩.

متفاوتة، ويمكن تبيّن خمسة مواقف حيال التراث الشفهي وأهميته هي:

١ - أن التراث الشفهي قد يحتوي على قدر من الحقيقة والصدق.

٢ - أنه من المستحيل تبيّن مقدار الحقيقة في التراث الشفهي وتقييمها.

٣ - أن التراث الشفهي لا يمكن الاعتماد عليه في كتابة التاريخ.

٤ - أن كل العوامل المؤثرة في مصداقية التراث الشفهي يجب أن تُفحص بعناية.

٥ - يجب أن يخضع التراث الشفهي للفحص الدقيق بواسطة المنهج التاريخي الصارم[١].

تحويل الرواية الشفهية إلى تاريخ مدّون:

كما قلنا فإن الرواية الشفهية عرضة للتغيير والتبديل، والإنسان عرضة للنسيان، وقد تخونه الذاكرة أو يخلط بين الأحداث، أو ينحاز لجهة معينة أو رأي أو فكر يؤمن بهما، لهذا لا بد من دراسة الراوي نفسه، ولا بأس أن نطبق على الرواة شيئاً يسيراً من منهج المحدثين، ولا بأس أن يقوم المؤرخ بدور المحقق الذي يستجوب الشهود من أجل الوصول إلى الحقيقة[٢]، ولهذا يصح أن نقول : إن الرواية الشفهية معرفة تاريخية إذا كان مضمونها يشكل شاهداً أو دليلاً يبحث عنه المؤرخ؛ لتعليل ما وقع أو لتدعيم وجهة نظره، وبهذا تصبح الروايات الشفهية مجرد أدلة أو كشوف نفي أو إثبات وجهة نظر معينة[٣].

ويقول الدكتور ميلاد المقرحي: إن هناك ثلاث قضايا ينبغي اعتمادها عند تحويل الرواية الشفهية إلى رواية مدّونة:

١ - إمكانية تعليم الكثير من الرواية الشفهية في ميدان التاريخ.

(١) ضاهر. التأريخ الأهلي والتأريخ الرسمي، ص١٨٦.

(٢) فانسينا. المأثورات الشفهية، ص١٨٦.

(٣) قسطنطين زريق . نحن والتاريخ، ص٩٤.

٢ - أن دراسة الماضي من خلال الرواية الشفهية تشتمل على كل أنواع البحث التاريخي الأخرى فهي مزيج من الإثارة والرتابة.

٣ - أن يوضع ما يُجمع من روايات شفهية في متناول المؤرخين؛ لتوسعة دائرة استخدامها، خصوصاً لدى كثير من المؤرخين الذين يقللون من أهميتها، لا بد من نشرها وجعلها متاحة مثلها مثل التاريخ المدون(١).

من هنا تتضح أهمية أن يقوم المؤرخ بفحص الروايات الشفهية وتقويمها ومعرفة الدوافع من ورائها وكذلك طريقة تناقلها، ولعل هذا العمل يقود إلى فحص آخر لا يقل أهمية عن الأول، وهو فحص الحبكة الأسلوبية، والهدف، والخلفية للراوي. كما على المؤرخ أن يفحص كذلك البناء الداخلي والخارجي للرواية الشفهية من خلال المنهج المعروف لدى المؤرخين، فإذا تم كل ذلك بنجاح يمكن عندئذ تدوين الرواية الشفهية؛ ومن ثم تصبح وثيقة تاريخية مثلها مثل الوثائق المعروفة.

لقد اشتط المؤرخون في إيراد شروط كثيرة لتحويل الرواية الشفهية إلى رواية مدونة، ولهم الحق في ذلك طالما أن أغلب التراث الشفهي يحمل في طياته تناقضات كثيرة مع التاريخ المدوّن. من ذلك أن أغلب الروايات الشفهية تسودها ثلاثة مفاهيم ثقافية مهمة هي: افتقارها لمفهوم القياس الزمني، وعدم وضوح الفكرة التاريخية فيها، والثالثة النظر إلى الماضي بمثالية كبيرة. Idealization of the past وهذا كله يشكل إحدى المشكلات التي تواجه البحث في التاريخ الشفهي.

(1) P. Gardinet, The Nature of Historical Explanation, London Univ. Press, 1968, p.56. Also see: Rober Perks. Oral History: Talking about the past, The Historical Association in association with the Oral History Society, . London, 1995.

وقد قام المؤرخون ومعهم بعض علماء الإنسانيات بدراسة موسعة للاستفادة من التراث الشفهي، ولعل فانسينا من أوائل من انتبه إلى هذا الأمر، وقدم دراسة ممتازة تجمع بين التراث الشفهي ومنهج المؤرخين الصارم. وقد نبه لأمر مهم، هو خلو المأثورات الشفهية من أي نوع من أنواع التنميط المعروفة Typology ، ومع أهمية ما قام به، إلاّ أنه لم يُقدم تنميطاً عاماً، ولم أعرف حتى الآن من بحث في هذا الشأن المهم، اللهم إلاّ ما فعله ديفيد هينج في كتابه (التاريخ الشفهي)، وعمله لا يعد تنميطاً بقدر ما يعد خطوات أولية في التعامل مع المادة الشفهية[1]. ولهذا أصبح لزاماً على المؤرخين التعامل مع أنماط متعددة، وهو ما يرهق المؤرخ ويستهلك وقته.

أما التنميط المحدود الذي اقترحه فانسينا عند تعامله مع الروايات الشفهية الأفريقية فهو:

١ - الصيغ: مثل الألقاب والشعارات، والصيغ التعليمية، والصيغ الدينية.

٢ - الشعر: مثل الشعر الرسمي، والشعر العام والخاص، والشعر التاريخي، وشعر المديح والهجاء.

٣ - القوائم: مثل أسماء الأماكن، والأعلام.

٤ - الحكايات: مثل الحكايات العامة، والمحلية، والعائلية، والأساطير، والذكريات الشخصية.

٥ - التعليقات: مثل النظر في الرواية وهل لها سوابق، وهل هي رواية توضيحية، أم خاصة بالمناسبات العامة أو الخاصة.

وهكذا يتضح بجلاء الفشل الذي ألم بفانسينا عند تنميطه للشواهد التاريخية التي جمعها، فعلى الرغم من قوله: إن المأثورات الشفهية تعتمد على تجميع دقيق

(١) المقرحي. الرواية الشفوية والمصادر المدونة، الجزء الثاني٠- **مجلة قاريونس العلمية**، السنة الثالثة، العدد الثاني ٠- بنغازي، ١٩٩٠م، ص٤٥.

وتحليل للمعطيات، وكذلك إشاراته المتعددة إلى مصطلح الصيغ النمطية واقتراحه لعدد منها، وأنها تدخل في نسيج الشواهد التاريخية، فإنه لم يجعلها مرتبة ومتسقة مع فهرس ستيث نومسون المعروف عند دارسي الفولكلور بـ (Motif Index of Folkltreture) وهو الفهرس الوحيد للتعامل مع التراث الشفهي.

كما أنه لم يهتم بالإسناد والرواة بالطريقة نفسها الموجودة عند علماء المسلمين(١).

تتألف عملية البحث في مجال التراث الشفهي من ثلاث مراحل متتالية هي:

١ - مرحلة جمع المادة من مصادرها الشفهية.

٢ - تليها مرحلة تصنيف ما تم جمعه وفهرسته وإيداعه في أرشيف.

٣ - ثم تأتي بعد ذلك المرحلة الأخيرة وهي مرحلة الدراسة والتحليل.

أما جمع المادة الشفهية فيتم بثلاثة طرق وهي:

أ - طريقة الملاحظة .Observation

ب - طريقة المشاركة .Participation

ج - طريقة المقابلة .Intervies

وكل طريقة من هذه الطرق لها إيجابياتها وسلبياتها، ويستحسن الجمع بينها، كما فعل العالمان الأمريكيان ملمان باري Milman Parry وألبرت لوردAlbert Lord اللذان قدما نظرية الصياغة الشفهية .The Oral Formulatic Theory وهي نظرية تُعد الآن من أحدث النظريات في مجال البحث العلمي المتعلق بالتراث الشفهي من حيث الجمع والتعامل(٢).

وعند الوصول إلى هذه المرحلة يرى بعضهم ضرورة تغيير مسمى الرواية

---

(١) ديفيد هنيج. **التاريخ الشفهي**، ص٥٥ وما بعدها.

(٢) فانسينا. **المأثورات الشفهية**، ص٣٣، ص٥٥.

الشفهية إلى مسمى التاريخ الشفهي، الذي يُشكل الآن فرعاً متنامياً من فروع علم التاريخ، وأحسب أنه يوجد نوعان من التاريخية الشفهية Oral Historiography، وهما: التاريخ الشفهي Oral Histrory، والرواية الشفهية Oral Tradition، فالأول فرع من فروع التأريخ أصبح فيما بعد علماً. أما الثاني فيشكل مصدراً من مصادر التاريخ: ويشمل التقاليد والثقافة الشفهية؛ وهي التي تنتقل من جيل إلى آخر عن طريق الرواية وليس عن طريق الكتابة، والتراث الشعبي عنصر من عناصر الثقافة، ولكن لا يمكن عدّ كل تراث شعبي متواتراً مقبولاً ليدخل في مسمى الرواية الشفهية ما لم يكن منتشراً في المجتمع، ومثله الرواية الشفهية التي هي الذكريات المتعلقة بالماضي، ولكن لا يمكن أن تنتقل من حيز الرواية الشفهية إلى حيز التاريخ الشفهي ما لم تكن متواترة ويؤيدها شيء من التاريخ المكتوب.

ولعله من المفيد الأطلاع على العمل الجيد الذي ألفه كوللوم ديفز وزملاؤه Cullo, Davis, Kathryn Back & Kay Maclean بعنوان: (التاريخ الشفهي من الشريط إلى الورق (Oral History from Tape to Type وفي أربعة فصول تحدث المؤلفون عن: خطوات جمع التاريخ الشفهي، وتحويل الروايات الشفهية إلى تاريخ مدّون، ولقاء العامة ونشر التاريخ الشفهي، وأخيراً إدراك التاريخ الشفهي. إن هذا العمل يمكن تبنيه مع تغيير طفيف؛ ليصبح مناسباً لدول منطقة الخليج العربية[(1)].

وفي هذا الشأن يمكن إلقاء نظرة سريعة على أهم المحاولات العلمية لتحويل

(١) سعد الصويان . **جمع المأثورات الشفهية** .- الدوحة : مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، ١٩٨٥م، ص٢٩، ص٧٩، وانظر أيضاً: إبراهيم إسحاق، الرواية الشفهية بين مناهج التراثيين الشفهيين والمؤرخين التقليديين:- **مجلة المأثورات الشعبية**، العدد الثاني، يناير ١٩٨٩م.

التراث الشفهي إلى تاريخ مدوّن في منطقة الخليج، وسنختار المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة كمثلين.

وبداية لا بد من التنويه إلى أن استعمال التراث الشفهي باعتباره مصدراً في دراسة التاريخ في بلدان الخليج العربي حديث العهد، إذ كان معظم المؤرخين والإخباريين يركنون إلى المصادر المدوّنة، مثلهم مثل نظرائهم في العالم العربي. ومن المهتمين بالتاريخ الشفهي في المنطقة: عبدالله صالح المطوع، وفالح حنظل، وعبدالله العثيمين، ولوريمر، ومايلز، وكيلي.

نستطيع أن نعدّ بعض الوثائق المحلية في أول أمرها وثائق شفهية تم تدوينها خشية ضياعها أو لأهميتها في مجال الحقوق أو التاريخ المحلي. وقد اختار الدكتور سيد حامد حريز أربع مخطوطات تاريخية تشكل في ظنه أهم الوثائق الشفهية لتاريخ عُمان والإمارات العربية المتحدة، وقد دونت في أوقات مختلفة وهي: (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة لسرحان بن سعيد الأزكوي) (والفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، والشعاع الشائع بالعنان في ذكر أئمة عمان وما لهم من العدل والشأن) وكلاهما لحميد بن محمد بن رزيق. (والجواهر واللآلي في تاريخ عمان الشمالي) لعبدالله بن صالح المطوع[1] والواقع أن اختيار سيد حريز موفق؛ لأن محتويات تلك الوثائق التاريخية كانت لوقت قريب مما يتناقله الناس مشافهة، كما أنها أضافت لتاريخ منطقة الخليج المدوّن حقائق وتفسيرات جديدة.

أما في المملكة العربية السعودية فيمكن أن نختار عدداً من الكتب تمثل هذا التوجه، ولكننا سنقتصر على أمثلة محدودة من مثل: كتاب (تاريخ ملوك آل سعود)

(1) Cullom Davis et al, Oral History from Tape to Type, American Library Association, Chicago, 1977.

للأمير سعود بن هذلول آل سعود وخاصة في الفترة التي عاصرها المؤلف[١]، وكتاب (نبذة تاريخية عن نجد) لضاري بن فهيد الرشيد[٢]. وكتاب (الأمير عبدالله بن عبدالرحمن بن فيصل ١٣١١- ١٣٩٦هـ) لصلاح الدين المنجد[٣]. تدخل ضمن الوثائق الشفهية المدونة حديثاً وما قلناه عن المخطوطات السابقة يمكن أن يُقال عن هذه الكُتب، فقد أضافت شيئاً جديداً للتاريخ المدوّن لنجد وتاريخ المملكة العربية السعودية. أما المحاولات العلمية المعاصرة في توظيف الشعر الشعبي الشفهي باعتباره مصدراً تاريخيّاً فمن أشهرها: بحث لعبدالله العثيمين وفيه جمع جملة من الأشعار المتداولة لتاريخ المملكة[٤]. ولكاتب هذه السطور محاولة في تفسير دعوة مسيلمة بن حبيب الحنفي، المشهور بمسيلمة الكذاب من منظور أسطوري، وقد توصل إلى تفسير جديد للأقوال المنسوبة إلى مسيلمة، وهو خلاف المُعتقد لوقت قريب من أن الأساطير الشفهية لا فائدة منها للتاريخ[٥]. ولعل من المفيد في هذا الصدد الإشارة إلى أن أول من لفت أنظار العلماء إلى أهمية الأساطير في البحوث التاريخية هو ماكول McCall في دراسته المستفيضة عن الأساطير، وفيها ثبت لكل ذي رأي أهميتها، ثم جاء بعده سير لورانس جوم Sir Lawrance Gomme وأثبت بطريقة لا لبس فيها أهمية الأساطير

(١) انظر: مناقشة سيد حامد حريز لأهمية المخطوطتين الأولى والثانية من الناحية الشفهية والتاريخية في: **مناهج التراث**، ص٧٩، وما بعدها.

(٢) سعود بن هذلول آل سعود. **تاريخ ملوك آل سعود**.

(٣) ضاري بن فهيد الرشيد. **نبذة تاريخية عن نجد** .- الرياض : دار اليمامة للبحث والنشر، ١٣٨٦هـ.

(٤) صلاح الدين المنجد. **الأمير عبدالله بن عبدالرحمن بن فيصل ١٣١١- ١٣٩٦هـ** .- بيروت، ١٩٧٧م.

(٥) عبدالله العثيمين. **الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد، مصادر تاريخ الجزيرة العربية**، الكتاب الأول، جامعة الرياض، ١٣٩٧هـ، ص٣٧٧ وما بعدها.

في الدراسات التاريخية، ولعل كتابه الموسوم بـ (الفولكلور كعلم تاريخي Folklore as an Historical Science) خير ما يمكن الركون إليه في هذا الشأن[1].

وخلاصة القول: إن تدوين التراث الشفهي واستعماله مصدراً تاريخيّاً لم يعودا أمرين مطروحين للنقاش، فقد ثبت لكل مُتابع أهميتهما، ولقد تبنت هذا الأمر مؤسسات علمية وطنية في دول الخليج العربية من مثل: مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية بالدوحة، ومركز زايد للتراث والتاريخ في مدينة العين، ومركز بحوث التاريخ والتراث الشعبي في جامعة الإمارات العربية المتحدة، ووحدة التاريخ الشفهي بدارة الملك عبدالعزيز في مدينة الرياض.. ويمكنني أن أؤكد من منطق المطلع والمُشارك في مشروع رصد وتدوين الروايات الشفهية في المملكة العربية السعودية أن العمل يقوم على أساس علمي متين. وهو يسير بتؤدة ونجاح، وقد تم تسجيل أكثر من ١٠,٠٠٠ مقابلة، ومن المؤمل عند الانتهاء من المشروع ونشره أن يُصحح هذا التراث الشفهي كثيراً من نقاط الاختلاف أو الغموض في بعض جوانب تاريخ المنطق المدوّن.

وحقيقة أخرى يجب ألاّ تغرب عن أذهاننا. وهي أن التراث الشفهي والمحافظة عليه أمران مهمان لإبراز الخصوصية الثقافية التي تعدّ من القضايا الرئيسة في حياة الشعوب[٢]. وهو أيضاً الأمر الذي فطنت له اليونسكو منذ عام ١٩٨٤م وأعلنت في خطتها آنذاك ضرورة المحافظة على التراث الشفهي أيّاً كان نوعه، وجعلته من محفزات التنمية الوطنية[٣].

(١) عبدالله العسكر. المدلول الأسطوري لدعوة مسيلمة بن حبيب الحنفي، **العصور**، الرياض، ١٩٩٢م.

(٢) فانسينا. **المأثورات الشفهية**، ص٣٥.

(٣) نبيل سلامة. **التراث الشفوي**، ص٨٢.

المصادر المراجع

١ - أسد رستم . **مصطلح التاريخ** ٠- بيروت : المكتبة العصرية، ١٩٨٤م .

٢ - جواد علي. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** ٠- بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨م.

٣ - جيمس مونرو. **النظم الشفوي في الشعر الجاهلي** ؛ ترجمة فضل العماري ٠- الرياض: دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، ١٤٠٧هـ.

٤ - ديفيد هينج . **التاريخ الشفهي**؛ ترجمة ميلاد المقرحي، مركز دراسة جهاد الليبيين سلسلة الدراسات المترجمة، ٢٠ طرابلس ١٩٩١م.

٥ - سعد الصويان . **جمع المأثورات الشفهية** ٠- الدوحة : مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، ١٩٨٥م.

٦ - سعود بن هذلول آل سعود. **تاريخ ملوك آل سعود**. الجزء الأول ٠- الرياض: مطابع المدينة ، ١٩٨٢م .

٧ - سيد حامد حريز. **مناهج التراث والتاريخ الشفهي عند العرب** ٠- أبو ظبي : جامعة الإمارات العربية المتحدة - كلية الآداب، ١٩٩٢م،

٨ - صلاح الدين المنجد. **الأمير عبدالله بن عبدالرحمن بن فيصل ١٣١١- ١٣٩٦هـ** ٠- بيروت، ١٩٧٧م.

٩ - ضاري بن فهيد الرشيد. **نبذة تاريخية عن نجد** ٠- الرياض : دار اليمامة للبحث والنشر، ١٣٨٦هـ.

١٠- عبدالله العثيمين. **الشعر النبطي مصدراً لتاريخ نجد، مصادر تاريخ الجزيرة العربية**، الكتاب الأول، جامعة الرياض، ١٣٩٧هـ.

١١- عبدالله العسكر. المدلول الأسطوري لدعوة مسيلمة بن حبيب الحنفي، **العصور** ، الرياض، ١٩٩٢م.

١٢- فانسينا، يان. **المأثورات الشفهية: دراسة في المنهجية التاريخية**؛ ترجمة أحمد علي مرسي ٠- القاهرة : دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨١م

١٣- قسطنطين زريق . **نحن والتاريخ** - بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٣م.

١٤- مسعود ضاهر. التأريخ الأهلي والتأريخ الرسمي: دراسة في أهمية المصدر الشفوي٠- **مجلة الفكر العربي**، السنة ٤، العدد ٢٧ مايو- يونيه ١٩٨٢م.

١٥- المقرحي: ميلاد. الرواية الشفهية والمصادر المدونة، الجزء الأول ٠- **مجلة قاريونس العلمية**، السنة الثانية، العدد الرابع ٠- بنغازي، ١٩٨٩م.

١٦- نبيل جورج سلامة . **التراث الشفوي في الشرق الأدنى ومنهجية حمايته** ٠- دمشق : وزارة الثقافة السورية، ١٩٨٦م.

١٧- والترا أونج، الشفهية والكتابة؛ ترجمة حسن البنا عزالدين، **سلسلة عالم المعرفة** ١٨٢، الكويت، ١٩٩٤م.

١٨- المقرحي. الرواية الشفوية والمصادر المدونة، الجزء الثاني٠- **مجلة قاريونس العلمية**، السنة الثالثة، العدد الثاني ٠- بنغازي، ١٩٩٠م.

١٩- إبراهيم إسحاق، الرواية الشفهية بين مناهج التراثيين الشفهيين والمؤرخين التقليديين٠- **مجلة المأثورات الشعبية**، العدد الثاني ، يناير ١٩٨٩م .

1- Bauer, W., Einfuhrung in das studium der Geschichte, Tubingen, 1928.

2- Cullom Davis et al, Oral History from Tape to Type, American Library Association, Chicago, 1977.

3- Feder, A., Methodik, Gegensburg Lehrbuch der Geschichtlichen, 1924.

4- P. Gardinet, The Nature of Historical Explanation, London Univ. Press, 1968.

5- Hanige, David, Oral Historiagraphy, 1st. ed. University of Texas, Auston, 1983.

6- Robert Lowie, Oral Tradition and History, JAF, 30, 1917.

7- Rober Perks. Oral History: Talking about the past, The Historical Association in association with the Oral History Society, London, 1995.